"مظاهر الأدب النسويّ في كتابات يوسف إدريس وزكريّا تامر"

أماني هوّاري*

يناقش هذا المقال، بالاعتماد على دراسة أكاديميّة جارية، النظريّة القائلة إنّه يمكن للكاتب الرجل أن يكون نسويًّا في كتابته، على اعتبار النسويّة آيديولوجيا غير موصولة بالسِّمات البيولوجيّة. يتناول المقال ادّعاءات بعض المنظّرات في النقد النسويّ في ما يخصّ الكتابة النسويّة ومعاييرها في الأسلوب وفي المضمون، ككتابة تُعنى بالمجموعات المهمَّشة.

في هذا العرض التحليليّ، أعتمد على الأدبيّات التي قمت بدراستها لأعاين من منظور النقد الأدبيّ النسويّ نموذجًا من كتابات كلّ من الكاتبين زكريّا تامر ويوسف إدريس، وتحديدًا قصّة زكريّا تامر "رجال" وقصّة يوسف إدريس "بيت من لحم"، وأفحص فرضيّتي بشأن إمكانيّة خضوعها لمعايير الكتابة النسويّة، وذلك من خلال دراسة أكاديميّة أقوم بها حاليًّا.

أصل الفكرة:

يعتمد هذا المقال على الفكرة النظريّة أنّه يمكن للكاتب الرجل أن يكون نسويًّا في كتابته، وذلك لأنّ النسويّة عقيدة. في هذا الصدد، تؤكّد الناقدة النسويّة ساندرا بارتكي Sandra Bartky وجود العديد من الرجال الذين حملوا فكرًا مناهضًا للعقيدة الذكوريّة التي يرون أنّها أضرّت، وما زالت، بالرجل كما بالمرأة. وتلخّص الناقدة قراءتها لكتابات هؤلاء الرجال بأنّه يمكن القول إنّ فرض الهُويّة الجندريّة الذكوريّة هو أمر يجرّ الألم على الرجال، كما هو الشأن في فرض الهُويّة الأنثويّة على النساء، وهو ما حفّز الكثيرين منهم على دعم النساء في نضالهنّ، إضافةً إلى رؤياهم بشأن إحقاق العدالة الاجتماعيّة في العالم (Digby 1998, Foreword).

لا شكّ أنّ دوافع الرجال النسويّين لتبنّي مثل هذا الفكر المناهض للفكر الأبويّ الذكوريّ تُفهَم في سياق عقيدة إنسانيّة أشمل تُشمَل هذه في طيّاتها؛ ألا وهي عقيدة مناهضة للظلم بأشكاله المختلفة. ذاك موقف يوازي موقفَ نساء الغرب البيض غير العنصريّات اللاتي يناضلن ضدّ التمييز العنصريّ. فهنالك رجال مثل أولئك النساء، لا يستطيعون التواطؤ مع الظالم والمضطهِد، ولا يريدون التعاون مع اضطهاد وإخضاع نصف البشريّة، بل يرون دَورهم في أن يثوروا على هذا النظام سعيًا وراء إحقاق العدالة الاجتماعيّة (Digby 1998, Foreword). هذه العقيدة الأشمل هي ذاتها التي تحدّث عنها جورج طرابيشي وإدوارد سعيد وغيرهما من نقّاد فترة ما بعد الاستعمار. وهي ذاتها تلك التي عبّر عنها بعض النقّاد من خلال رؤيتهم أنّ الرغبة في تغيير الواقع الـمَعيش تتطلّب وعيًا كاملًا للظلم الواقع والاستغلال في المجالات كافّة، بدءًا بنواة العائلة، ومن ثمّ في العمل وفي المجتمع. ومن أشكال مناهضة الظلم ثورةُ الأدب النسويّ، كفعل واعٍ مقصود يهدف إلى تغيير الوضع القائم، ومن الممكن أن ينتجه الرجال والنساء على حدّ سواء (Taha 2006, 30).

يفترض هذا المقال أنّه بإمكان الكاتب الرجل أن يسهم في الكتابة النسويّة على المستويين؛ الآيديولوجيّ والأسلوبيّ، في الحدّ الذي لا يرتبط بيولوجيًّا بجنسه. ترى الناقدة والكاتبة النسويّة إلين سيكسو Hélène Cixous أنّ ما سمّته "كتابة المرأة"Écriture Féminine لا يتعلّق بجنس الكاتب، وإنّما بجنس النصّ، وعليه نحن نبحث بالأساس في نسويّة النصّ لا في مؤلِّفه بالضرورة. تذكر سيكسو عددًا من أسماء الكتّاب من الرجال الذين أتقنوا هذا النوع من الكتابة وقدّموا خير مثال لها (Tyson, 101)، كذلك يعتقد الناقد ستيفان هيث Stephan Heath أنّ المرأة النسويّة ليست نسويّة لكونها امرأةً، بل لأنّها تحمل عقيدة اجتماعيّة سياسيّة، وتلتزم بنضالٍ يسعى إلى تغيير الواقع الذي تعيشه المرأة. تصبح النساء نسويّاتٍ بدافع الوضع القائم؛ فالنسويّة تنبثق من الوعي لظلم المرأة واستغلالها، سواء أكان ذاك في العائلة، أم في مكان العمل، أم في المجتمع عامّة، وتكون بوعيٍ من المرأة والرجل على حدّ سواء من أجل تغيير هذا الواقع (Taha 2007, 194).

نبع اهتمامي للشروع في هذا البحث من اهتمامي بالبحث في صورة الإنسان المهمَّش في الأدب. وبما أنّ البحوث في أدب المرأة وكتاباتها في العالم العربيّ أوفتها حقّها، جاءت الفكرة أن أنظر في أدب رجال مهمَّشين في عالَـم مهمَّش، كتبوا بشكل مغاير، اخترقوا المتوقَّع وثاروا على المقبول، تضامنوا مع المرأة وكتبوا من زاوية نظرها المهملة، تماهَوْا مع قضاياها وكتبوا بصوتها، صوت المهمَّشين الذين ينتمون إلى فئتهم.

من أهداف البحث الحفرُ في الأدب الموجود لإتاحة قراءات جديدة من شأنها أن تضفي بعدًا جديدًا للنصوص العربيّة، ولا سيّما في مجال نسويّة الرجل العربيّ، وهو موضوع لم يُبحث على نحوٍ متعمّق في الأدب العربيّ، ولا في الغربيّ. لذا، قد تفتح نتائج هذا البحث آفاقًا جديدة لم يُنظر فيها أو نحوها، كما من شأنها إنصافُ بعضٍ من الكتّاب الرجال الذين هُمّشت بعضٌ من أبعاد كتاباتهم.

المسوِّغات النظريّة للبحث:

تجاهَلَ النقد الأدبيّ في طرحه إنجازاتِ النساء، شأنه في ذاك شأن التاريخ والعلوم الاجتماعيّة والسياسيّة وغيرها، وهو ما جعل الوعي النسويّ يتّخذ مَهَمّةً مزدوجةً في هدم المباني الحضاريّة الذكوريّة وإعادة البناء بموجب مفهوم التجربة النسويّة، وذلك من أجل تغيير التقليد السائد الذي أصمَتَ المرأة وهمّشها. سعت الأبحاث النسويّة إلى كشف التواطؤ القائم بين العقيدة الذكوريّة والممارسات الحضاريّة والاجتماعيّة، وعملت على إعادة صياغة صورة المرأة، متحدّيةً الأدلّة المتوافرة، ومعيدةً تعريف المفاهيم والأعراف السائدة، وكلّ ما هو متّفَق عليه. فدعا النقد النسويّ، وما زال، إلى تحرُّر المرأة من سلطة الخطاب الذكوريّ وإلى اعتمادها التجربة النسويّة الخاصّة حيث لا يستطيع الرجل منافستها في مضمارها.

يُعرَّف النقد الأدبيّ النسويّ بأنّه فرع من نظام استفهاميّ يقوم على فرضيّتين أساسيّتين: أُولاهما عدم المساواة القائم بين الجنسين دون مسوِّغ بيولوجيّ أو إلهيّ، بل كسلوك وممارسة حضاريَّيْن، ولذلك يُعتبر موضوع بحث في نظام إنسانيّ، وثانيتهما أنّ النظرة الذكوريّة العالميّة قد هيمنت في مجال العلوم صائغةً مبانيها وأساليبها على أساس متين. ويتّفق النقد النسويّ على ضرورة إعادة التحقيق في ما عُرّف واصطُلِح عليه كعالميّ خادمًا هدفًا محدّدًا، وكذلك على ضرورة شَمْل النظرة النسائيّة بغيةَ توسيع النظرة السائدة لتشارك فيه المرأة تجربتها وإسهاماتها الحضاريّة (Greene 1991, 2).

وتتّفق الأبحاث، كذلك، على أنّه يمكن تقسيم النقد الأدبيّ النسويّ في فترتين زمنيّتين هامّتين؛ فبداياته كانت في ستّينيّات القرن العشرين كحركة مرافِقة للموجة الثانية من الحراك النسويّ العالميّ الناشط من أجل حقوق المرأة في منظومة حملة حقوق المواطن، كما تتّفق على أنّ مرحلته الثانية بدأت في بداية سبعينيّات القرن الماضي، وقد برز في الولايات المتّحدة على أيدي أكاديميّات، صحفيّات، أديبات، ومحاضِرات جامعيّات اشتركن في حركة تحرير المرأة في ستينيّات القرن الماضي (Showalter Criticism, Forward, 5). وفي هذه المرحلة، ومن بعد انطلاقه في الولايات المتّحدة بفترة وجيزة، نشأ تيّار نقديّ نسويّ أوروبيّ كان التقاؤه بالأميريكيّ في منتصف سبعينيّات القرن الماضي من خلال المؤتمرات والمحاضرات، فبرزت فيه المقارَبتان النقديّتان الإنـجليزيّة والفرنسيّة[1].

في بداياته، ركّز هذا النقد على فضح كراهيَة النساء في الأدب، وعلى الصور النمطيّة للمرأة المكرِّسة للفكر الثنائيّ الخادم للبتريركيّة، كما على إقصائها من الأدب الذكوريّ التقليديّ. وقد عزّز هذا النقد الربط بين الأدب والإساءة الاجتماعيّة للنساء في البورنوچرافيا، أو حتّى محاولات الاغتصاب. وفي ثمانينيّات القرن الماضي، ارتفعت الحسّاسيّة تجاه قضايا التمييز الجنسيّ كافّة كنتيجة لمحاولات تنبيه القرّاء إلى النكات المسيئة للمرأة والتقليل من شأنها. وأثّر ذلك على نقد الذكور فانتفت ميزةُ القراءة البريئة للنصوص، وأصبح من الصعب تجاهل كراهيَة النساء أو التسامح فيها (Showalter Criticism, Forward, 5).

ويُعَدُّ كتاب المنظِّرة النسويّة كيت ميليت "سياسات جنسيّة" *Sexual Politics* الصادر عام 1970، في تلك الفترة، أوّلَ كتاب نقد نسويّ يقرن بين حركة تحرير النساء والعمل والحياة. ولا تنكر الأبحاث النسويّة أهمّيّة الكاتبة فيريجينيا وولف وكتابها "غرفة خاصّة بها" *A Room of One's Own* ودَوْره في تأسيس النقد الأدبيّ النسويّ. ومن خلال عمليّات الحفر والتنقيب في الأدب، أدرك النقد الأدبيّ النسويّ عملياتِ الحذف والفجوات والحقائق الجزئيّة والتناقضات التي تتقنّع بها العقيدة الذكوريّة، فأحسن الإصغاء إلى الصمت ليكشف عمّا لم تقله هذه العقيدة، عمدًا أو دون عمد. وبهذا البحث والتفكيك، يتحالف النقد النسويّ مع النقد التفكيكيّ الذي يهتمّ بفحص عمليّة إنتاج النصّ؛ أي ترتيب الخطاب الذي يشكّله، كما بالإستراتيجيات التي تصقل تَناقُضَ العقيدةِ التي تنقشه وعدمَ انسجامها لتجعلها في زيّ متناغم كلّيّ. ويُصغي نقد الأدب النسويّ، في ما يصغي، إلى عمليّة بناء العقيدة الجندريّة، بما فيها التنميط والتواطؤ (Gayle Greene & Coppelia Khan 1991, 22).

وفي فترة لاحقة للنقد الأدبيّ النسويّ، وتحديدًا في سبعينيّات القرن الماضي، انطلقت مرحلةُ اكتشاف المرأة أنّ لها أدبًا خاصًّا بها، أدبًا أعتمت عليه القيم الذكوريّة، ضلّلت انسجامه الثيماتيّ وأهمّيّته الفنّيّة. كتبت الناقدة النسويّة الأمريكيّة إلين شوالتر مؤلَّفَيْها "نحو شعريّة نسويّة" "Towards a Feminist Poetics"، وَ **"أدب خاصّتهنّ"**، وفيهما أكّدت على ضرورة إعادة بناء ماضي أدب المرأة، قبل البدء بالبحث عن خاصّيّة هذا الأدب وفردانيّته، كما على ضرورة اكتشاف الإنجازات الأدبيّة التي أحرزتها المرأة، وإحصاء جميع الأديبات من شاعرات وروائيّات وكاتبات مسرح غيّبهنّ التاريخ.

[1] تمثّلت الإنجليزية بأسماء الناقدات ميري جاكوبس Mary Jacobus وروزالند كوارد Rosalind Coward وكورا كَپلان Cora Kaplan، وغيرهنّ من الناقدات اللاتي جيّرن النظريّة الماركسيّة في قراءة إنتاجات المرأة الكاتبة. أمّا المقارَبة الفرنسيّة فتُجْمِع الأبحاث على تمثُّلها بأسماء بعض من المنظّرات، أبرزهنّ إلين سيكسو Hélène Cixous، جوليا كريستيڤا Julia Kristeva، لوس إريجاري Luce Irizarry، ومونيك ويتيج Monique Wittig. وقد كانت ركيزة هذا النقد المدرسة السيكوتحليليّة النيوفرويديّة التي أسّسها عالِم النفس الفرنسيّ جاك لاكان Jacques Lacan، كما استمدّ أدواته من المذهب التفكيكيّ الذي أسّسه جاك دريدا Jacques Derrida، إضافة إلى تأثّرها بالناقد البنيويّ رولان بارت Roland Barthes (Jones, 80).

وتعتقد شوالتر أنّ جمع هذه الإنجازات ضروريّ من أجل تأسيس تواصل تراثيّ للمرأة عبْر العقود الماضية، إذ ينبغي عدم التسليم بالحِقَب الإبداعيّة النسائيّة التي حدّدها التاريخ الذكوريّ حين حدّدها من "امرأة عظيمة"، بحسب تقييمه، إلى أخرى، وهمّش سائر المبدعات. وتقول إنّه عندما ينجح نقد الأدب النسويّ في خلق هذه السلسلة من المبدعات النساء وفحص تأثيرهنّ على الأجيال الماضية، عندها يمكنه تحديد دوريّة تاريخ الأدب وقدسيّة قَوْننة إنجازاته. وما دامت أعمال امرأة تُدْرَس بمعزل عن أعمال الأُخْريات، لا يستطيع هذا الأدب إدراك التواصل الذي يجمع بينها (Showalter 1985, 4-5).

كذلك سلكت الناقدتان الأمريكيّـتان ساندرا جلبرت وسوزان جوبار الاتّجاه نفسه، ودرستا أعمالًا نسائيّة صدرت في القرن التاسع عشر، وقد قدّمتا قراءة مختلفة للنصوص النسائيّة وأقرّتا أنّ النصّ النسائيّ يُقرأ في عدّة طبقات. الطبقة الظاهرة منه تبدو سطحيّة ذات دلالة واضحة، في حين أنّ قراءة متعمقّة للنصّ نفسه تكشف عن طبقات مستترة لمعانٍ أبعد وأصعب للتحديد (Moi 1995, 57).

أمّا التيّار الثالث الذي نشأ في أوروبا في أواخر ستينيّات القرن التاسع عشر، وبموازاة التيّار الأميريكيّ، فهو تيّار النقد النسويّ الفرنسيّ، الذي اعتُبِر تيّارًا نظريًّا مقارنةً بالتيّارين الإنجليزي والأمريكي العمليّين اللذين يعتمدان التجربة النسائيّة والممارسة (Tyson 2006, 96).

تشدّد النسويّة الفرنسيّة السيكوتحليليّة على تأثير البتريركيّة على نفسيّة المرأة وتجربتها وإبداعها. وتسلّط الضوء على المرأة الفرد لا على الجمع، مؤمنةً بأنّ الاضطهاد لا ينحصر في المستويات الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة، بل يتجاوزها جميعًا إلى المستوى النفسيّ، فيؤثّر في كبت المرأة نفسيًّا وعلى مستوى اللاوعي أيضًا. ترى هذه المقاربة النقديّة أنْ على المرأة أن تحرّر ذاتها أوّلًا من الكبت النفسيّ الذي أخضعها، وجعَلَها أسيرةً له، المجتمعُ البتريركيّ الذكوريّ، كخطوة حتميّة تنطلق بعدها إلى سائر أشكال التحرّر. وترى أنّ المحلّ الأساسيّ الذي يحصل فيه هذا الكبت هو اللغة. إذ في اللغة تمرَّر المفاهيم المرتبطة بالتمييز الجنسيّ كافّة، وما تعتبره البتريركيّة مولودًا مع الذكر والأنثى. كذلك، من خلال اللغة تُبنى الفوارق الجندريّة المرتبطة بكلّ من الجنسين ارتباطًا بيولوجيًّا جوهريًّا، بادّعاء الأبويّة (Tyson 2006, 100). وعليه، تنطلق هذه المقاربة النقديّة من اللغة باعتبارها الوسيلة التي وظّفها الرجل لتحييد المرأة ووضْعِها في القطب السلبيّ في الثنائيّة الضدّيّة ليبرّر فوقيّته.

وجدت النسويّة الفرنسيّة جذورها في اللغويّات والماركسيّة والفرويديّة الحديثة، كما في اللاكانيّة والدريدانيّة التفكيكيّة. فنراها تعتمد على نظريّة العالِـم الفرنسيّ السيكوتحليليّ جاك لاكان الذي بنى على ما وضعه العالم النفسي التحليليّ سيجموند فرويد من قبله، موظِّفًا فهمَه لنظريّتَيِ اللغويَّيْن البنيويَّيْن فيرديناند دي سوسور ورومان جاكبسون، وكذلك الأنتروبولوج البنيويّ ليڤي شتراوس. وقد أفادت هذه النظريّة من التوجُّه البَعْد بنيويّ الذي يتمثّل بأعمال دريدا وفوكو العامِلَيْن على إعادة بناء الوعي، وركّزت على تسليط الضوء على الثنائيّات الضدّيّة التي بُنِيتْ عليها الأدوار الجندريّة (Plain & Sellers 2007, 214- 215).

أسئلة البحث ومنهجيّته:

وعلى هذا البناء تطرح هذه الورقة السؤال المركزيّ التالي: هل يكون الكاتب الرجل نسويًّا في أدبه؟ وبطبيعة حال سؤال البحث المركزيّ، تتفرّع عنه ثلاثة أسئلة جوهريّة سيجري التعامل مع السؤالين الأوّلين منها في هذه الورقة:

1) **ما هي المضامين والأفكار التي يجب أن يطرحها النصّ لكي يكون نسويًّا؟**
2) **بأيّ أسلوب يجب على النصّ توصيل هذه المضامين والتعبير عنها؟**
3) **هل يكون نصّ الكاتب الرجل نسويًّا بنفس المقدار الذي يكون به نصّ المرأة؟**

الحقيقة أنّ الدراسات النظريّة في هذا الموضوع محدودة جدًّا، والدراسات الخاصّة في الأبعاد النسويّة لأدب هذين الرجلين لا تُذكر. وفي حين تحاول دراسة مستفيضة لأعمال الكاتبين يوسف إدريس وزكريّا تامر كنموذجين لكاتبين نسويّين الإجابةَ عن هذا السؤال، يعرِض هذا المقال نموذجًا تحليليًّا لنصّ نسويّ لكلّ من هذين المؤلّفين.

كي يُنجَز هذا العمل، لا بدّ من تحديد المنظومة الاصطلاحيّة التي يتأسّس عليها النقد النسويّ على مستويَي الفكر والأسلوب. فالنسويّة ليست مجموعة من الأفكار المعزولة عن أساليب التعبير، ولا بدّ أيضًا من تبيين الفروق الدقيقة بين التيّارات النسويّة المختلفة في الكتابة الأدبيّة النسويّة (نحو: الكتابة النسويّة feminist writing؛ الكتابة المؤنّثة، أو كتابة المرأة feminine writing؛ كتابة الأنثى female writing)، حتّى نتمكّن في النهاية من إدراج هذين الكاتبين في التيّار الذي يلائم كلًّا منهما.

وإذا ما أجملنا الحديث، يمكننا القول إنّ النصّ النسويّ بفكره يؤكّد على القضايا التالية:

1) إعادة النظر في مؤسّسة الزواج التقليديّة (Taha 2007, 197)؛
2) إعادة النظر في الحرّيّة الجنسيّة، وفتح الباب لعلاقات جنسيّة ذاتيّة ومثليّة (صفّوري 2007، 248؛ Taha 2007, 197)؛
3) الاحتفاء بالجسد والاحتفال به في إبرازه وتوصيفه بدقّة؛
4) التمرّد على جميع الأعراف الذكوريّة التي تحطّ من شأن المرأة في الدوائر الاجتماعيّة كافّة.

أمّا على مستوى الأسلوب، فيشدّد على ما يلي:

1) مركزيّة الشخصيّة النسائيّة في النصّ؛
2) إعلاء صوت المرأة في النصّ؛
3) توظيف تقنيّات ميتا-أدبيّة لتمكين الكاتب النسويّ من الهيمنة على المتخيّل السرديّ وعمليّة نقد هذا المتخيّل في النصّ نفسه على حدّ سواء؛
4) استخدام اللغة الشعريّة، التي يسمّيها البعض اللغة الأنثويّة. تدعو جوليا كريستيڤا المرأة إلى تجاوز اللغة البتريركيّة الأبويّة واستخدام البعد السيميائيّ للّغة، أمّا سيكسو فتَعتبر اللغة الأنثويّة أفضل ما يعبّر عن المرأة، وهي لغة سائلة مرنة وحرّة التداعيات (Tyson 2006, 102, 103)؛
5) إنتاج النوع الأدبيّ المرتبك المتداخل (صفّوري 2007، 92).

نموذج لقراءة في قصّة "رجال" لزكريا تامر بعدسة نسويّة:

تصوّر لنا هذه القصّة مَشاهد قصيرة جدًّا ومكثّفة لعلاقة بين رجل يدعى عبد الحليم المرّ وزوجته نبيلة. وهي مشاهدُ مختزَلةٌ في تهديداتٍ يقوم بتوجيهها عبدُ الحليم لزوجته، بينما زوجته تسخر منه ومن تهديداته فتستهتر بها وتتحدّاه تصعيديًّا، حتّى تنتهي القصّة بخيانتها له وتركِه عاجزًا عن القيام بأيّ ردّ. ولعلّ قراءة متعمّقة للقصّة تكشف عن المستتر في ثناياها؛ فعبد الحليم رجل شرقيّ ذكوريّ التفكير، يرى "حقّ" الرجل في التسلّط على زوجته مستمَدًّا من فحولته. وبعد التدقيق والتحليل، يَفهم القارئ من أحداث النصّ أنّ ضعف عبد الحليم أمام زوجته راجعٌ إلى عجزه الجنسيّ، وأنّ عجزه هذا يسلبه كلّ مؤهّل للرجولة، فلا فرق بين الرجولة والفحولة في المجتمع الذكوريّ، وهذه مسألة يطرحها النصّ ليسخر منها ويقزّم مؤيّديها.

إضافةً إلى المضمون النسويّ الذي يتمحور حوله هذا النصّ القصير، يوظّف زكريا تامر بعضًا من الأساليب الجماليّة المتفّق عليها لدى معظم تيّارات النقد النسويّ لتخدم غرضه من الفكرة المركزيّة. يجعل تامر المرأة الشخصيّة الأقوى؛ فنبيلة، الشخصيّة غير النمطيّة، متمرّدةٌ جَسورة ومتحدّية، تخرق المتوقَّع وتكسر التابوهات، وتتمرّد على الأعراف والتقاليد. أمّا عبد الحليم، فيصوّره النصّ مهزومًا ضعيفًا عاجزًا أمام تحدّيات زوجته.

يعتمد السردُ لغةً سيميائيّة شعريّة تقوم على التكثيف والانزياح والمفارقات؛ فأحداث النصّ مختزَلة، تبدو للقارئ مفاجِئة وغير واضحة، تنطوي على مفارقات في ثناياها. ولغته موجزة مكثَّفة، لا تكشف عن الكثير، بل توحي إليه من القليل المكتوب، وتُلجئ القارئ إلى فكّ شيفراها. إضافةً إلى ذلك، يلحظ القارئ انزياحًا في استخدام المفردات يجعلها تتيح قراءات عدّة، ويجعل النصَّ مراوغًا غير مستقرّ عند معنى بعينه، وهذا من مميّزات النصّ النسويّ.

نموذج لقراءة في قصّة يوسف إدريس "بيت من لحم" بعدسة نسويّة:-

تدور أحداث القصّة حول حاجات جنسيّة نساء محرومات، نساء حرمتهنّ السلطات التي تحكمهنّ، بدءًا بسلطتَي المجتمع والدين. في هذه القصّة يبرز العنصر النسائيّ بقوّة، فهو الفاعل والمبادر في كسر التابوهات الاجتماعيّة والدينيّة. تصف القصّة تصرّفات فتيات من طبقة فقيرة مهمَّشة، سجينات في بيتهنّ ولا نصيب لهنّ في هذه الدنيا حتّى في بعض الجَمال. إلّا أنّ هؤلاء الفتيات لا يتنازلن عن حقّهنّ في ممارسة علاقة جنسيّة تسدّ حاجاتهنّ، فتكون النتيجة أن يقُمن بأبشع ما يمكن أن تكون عليه علاقة جنسيّة غير شرعيّة، إذ يشاركن أمّهنّ في زوجها الكفيف. كلّ هذا بموافقة منها، وهي السلطة في العائلة الصغيرة بعد غياب سلطة الأب.

تُطرَح في هذه القصّة اتّفاقاتٌ اجتماعيّة هامّة، لتخرقها نساء القصّة ويتمرّدن عليها، والمخترَق هنا قضايا محسومٌ النقاش فيها من المنظور الدينيّ كالعفّة والشرف المستبدلَيْن بالزنا المبرَّر. لربمّا بالغ الكاتب في الطرح والاستهتار ليستفزّ ويحثّ على التغيير، وجعل الاستهتار مصادَقًا عليه من رأس العائلة الأنثى، وبتواطؤ خفِيّ من زوج الأمّ الذي دخل البيت أساسًا كمقرئ لكتاب الله، ممثّلًا للسلطة الدينيّة.

وعلى الصعيد الفنّيّ الجماليّ المكمّل للفكرة الرئيسيّة، نرى الشخصيّة النسائيّة حاضرة بقوّة على مستوى العدد والفاعليّة. أمّا على مستوى زاوية السرد، فيعلو صوتُ نصير المرأة في النصّ ليكشف عن وعيها للقارئ، فنسمع صوت الأمّ إذ قالت مبرِّرة دَورَها في جريمة الزنا: "جائعات وهي التي كانت تُخرِج اللقمة من فمها لتطعمهنّ... هي التي كان همّها حتّى لو جاعت أن تطعمهنّ، هي الأمّ، أنسيت؟"

أمّا لغة السرد في هذا النصّ، فتكثر فيها الكلمات المفعمة بالمعاني والإيحاءات الجنسيّة، وفي السرد أيضًا تكثيف لذِكر وتوصيف الأجساد ينضح بإيحاءات للحاجة الجنسيّة، نحو: طويلة بيضاء ممشوقة؛ فائرات؛ كتل غير متناسقة؛ العود؛ إناث؛ تتناثر مكبوتة... تلك الإيحاءات توظَّف لتدير الفكرة المركزيّة في النصّ بذكاء، فتُدين ظلم السلطة الاجتماعيّة الذكوريّة المدعومة من قِبل السلطة الدينيّة.

كذلك تستخدم القصّة بعضًا من الرموز التي اصطَلَح عليها المجتمع الذكوريّ وثبَّتَها ووظّفها لخدمته، فتسخر القصّة من هذه الرموز لتهزأ من قيم هذا المجتمع الزائفة. من أهمّها "الخاتم" الذي يرمز إلى مؤسّسة الزواج، بل هو رمز لعَقْد قران دينيّ يربط بين كلّ متزوّجَيْن، وليس دليلًا حتميًّا على حلال العلاقة وشرفها، إذ يخترق هذه المؤسّسةَ واضعوها كما يتّفق الحال مع مصالحهم الشخصيّة.

كذلك رمز "الصمت"، الخُلق الذي يتمسّك به الفكر الذكوريّ لأنّه يضمن بقاء الحال على ما هو عليه. هو رمز للقبول والانصياع والطاعة. مع تطوّر أحداث القصّة، يتحوّل إلى صمت من نوع آخر، صمت من إبداع العنصر النسائيّ يخدم في التستّر على كسر للتابوهات الاجتماعيّة والأعراف السائدة.

وأخيرًا ثمّة "الرجل الكفيف" رمزًا ممثّلًا للسلطة الدينيّة؛ فعلى خلاف المتوقّع منه (أن يكون باثًّا الأخلاقَ الدينيّة وناشرًا الرسالةَ النبيلة)، نراه يرأس الرذيلة في هذه القصّة. إذ يستنكر الراوي تصرُّف الرجل الكفيف الشريك في عمليّة "الزنا" المشتركة، غير واجدٍ له مبرِّرًا، فيؤكّد الكاتب أنّه يدرك حقيقةَ ما يفعل رغم عماه، ويجعله يقول: "بل هو الذي أصبح خائفًا أن يحدث المكروه مرّة ويخدش الصمت. ربّما كلمة واحدة تفلت فينهار لها بناء الصمت كلّه، والويل له لو انهار بناء الصمت".

إجمال:

يجد القارئ في أعمال الأديبَيْن المثقَّفَيْن يوسف إدريس وزكريّا تامر أنّ موقفَيْهما من المرأة والرجل في هاتين القصّتين ينسجمان مع مواقف نصّيّة عديدة أبدعها كلّ من الكاتبَيْن؛ ففي العديد منها يبدوان نصيرَيْن للمرأة متعاطفَيْن مع قضاياها، كما يبدوان ساخرَيْن من كلّ القوى التي سلبت الإنسان المستضعَف حرّيّته. فتكون مناصَرتُهما للمرأة منسجمةً مع رؤيتهما المناهِضة للاستعمار، على سبيل الموازاة بينها وبين المستعمَر المستضعَف في الصورة السياسيّة العامّة، ونعتقد أنّهما قد ناهضا الفكر الذكوريّ كصيغة من صيغ مناهضة مباني القوّة القامعة غير القابلة للتجزئة. ويبقى البتّ في ادّعاء هذا المقال القائل باتسّام نصوص الكاتبَيْن بمظاهر نسويّة رهينَ بحث مستفيض في جميع أعمال الكاتبين الأدبيّة.

مصادر:

صفّوري، محمّد. (2007). **دراسة في السرد النسويّ العربيّ الحديث**. حيفا: مكتبة كلّ شيء.

- Digby, Tom. (1998). **Men doing Feminism**. ed. by Tom Digby. New York: Routledge.
- Greene, Gayle & Coppelia Khan. (1991). “Feminist Scholarship and the Social Construction of Woman” **Making a Difference: Feminist Literary Criticism**. ed. by Gayle Greene & Coppelia Kahn. Routldge, NY pp. 1-36.
- Jones, Ann Rosalind. (1991). “Inscribing femininity: French theories of the feminine” **Making a Difference: Feminist Literary Criticism**. ed. by Gayle Greene & Coppelia Kahn. Routldge, NY. pp. 80-112.
- Moi, Toril. (1995). **Sexual/Textual Politics**. **Feminist Literary Theory**. London and New York: Routledge.
- Plain & Selles. (2007). **A History of Feminist Literary Criticism.** Cambridge: Cambridge University Press.
- Showalter, Elaine. (1985). **The New Feminist Criticism**. Essays on Women and Theory. ed. Elaine Showalter. New Yprk: Pantheon.
- Taha, Ibrahim. (2006). “Beware Men, They Are All Wild Animals” Arabic Feminist Literature: Challenge, Fight, and Repudiation. **Al-Karmil Studies in Arabic and Literature**, Volume 27. pp.25-71.
- Taha, Ibrahim. (2007). “Swimming Against the Current”. Toward an Arab Feminist Poetic Strategy. **Orientalia Suecana** LVI. pp. 193–222.
- Tyson, Lois. (2006). **Critical Theory Today**. New York London: Routledge. 2nd ed.

***أماني هواري طالبة للقب الثالث في أدب اللغة العربية، في جامعة حيفا. ومدرّسة للغة العربيّة لطلاب المرحلة الثانويّة.**